تشارلز دكنز

مواهبه وخصائص فنه

للأستاذ محمد عزت عرفة

(تتمة ما نشر في العدد ٥٢٠)

ضحك ... وبكاء

قد تعجب للكاتب الواحد يجمع بين الجد الصارم والفكاهة المرحة ، أو يمزج في حديثه بين الضحكات الهتانة والمدامع الهتانة : ولكن هكذا كان دكنز ! فهو في ثنايا كتبه (صحائف بكويك) يرتفع بأدب الفكاهة إلى القمة حتى لتكاد تلمح روحه المرح خلال كل حادث ، ومن وراء كل حوار . بل لقد أصبحت تلك الأساليب ذوات المعاني الطريفة الافتراضية التي أجراها دكنز على لسان بطله ساموبل بكويك رمزاً لكل أسلوب أو معنى ينضوي تحت هذا النوع ، مما يطلقون عليه اليوم اسم Pickwickian Sense . ولقد كان انسجام هذه العبارات دقيقاً وتواؤمها طريفاً مع فكاهات سام ويلر - بطل الرواية الثاني - التي جرت في أعقاب ظهورها على كل لسان ، وأبهجت بطرافة معانيها نفس كل قارئ . حتى لقد قال أحد نقاد الإنجليز في وصف هذا الكتاب : « إن الهدف الأسمى لصحائف بكويك إنما هو الفكاهة لذاتها ، وما نشك في أن هذا الكتاب قد ابتعث في صدور قرائه من الضحكات المرحة البريئة أكثر مما ابتعثه أي كتاب آخر في لغتنا ... »

أما رواية (حانوت الطُّرف العتيق) فإنها تعرض علينا صوراً محزنة من الحياة يسترعي التفاتنا ، من بينها قصة (نل الصغيرة) تلك التي أثارت أشجان الكثيرين وهي تطالعهم كل أسبوع بحوادث حياتها في حلقات متتاليات

ويذكرون أنه عندما اتضحت خاتمة القصة ، وظهر للقارئين أن (نل) على وشك أن تموت ، بعث أحد أصدقاء دكنز إليه بكتاب يرجوه فيه أن يبقي عليها ولو إلى حين . ولكن عبثاً كان هذا الرجاء ، فقد تقرر مصير البطلة المسكينة ، وظهرت بعد قليل حلقة وفاتها ، فاستدرت الدموع ، وأشجت قلوب الآلاف من القارئين

الواقع أن مفارقات دكنز ومضحكاته ... وصوره المؤلمة وأحزانه : إنما هي سلاح واحد ذو حدين يرمي به إلى غاية بعينها ، ويهدف به إلى غرض واحد لا يبغي سواه

فهو قد نصّب لأخطاء هذا المجتمع وأغرى بعيوبه ؛ وإنه ليحارب هذه الأخطاء والعيوب في كل ما يكتب ؛ يتهكم منها أحياناً فيكشف عن سوآتها ، ويذيل بسخريته اللاذعة ستارها البراق بحالة تقزز منها النفوس ؛ ويصورها بصورة قاتمة محزنة أحياناً فيستثير عليها أعمق مشاعر البغضاء والكراهية . وهو في كلتا الحالتين يعمل على هدمها ويجاهد في تبرئة المجتمع من وصمتها . ومن يقرأ رواية (مغامرات أوليفر تويست) يرَ كيف يضرب دكنز بسلاحه ذي الحدين في مقتل واحد !

فعوامل البؤس التي ألمّت بأوليفر من مبدأ طفولته تحلّق في جو الرواية كالسحابات القواتم ، وتغمر نفس القارئ بصور من الوحشة والإشفاق والألم تطالعه خلال كل سطر ، وتبرز إليه من وراء كل عبارة

فيُتم أوليفر الباكر ، وحياته البائسة في الملجأ ، ثم تحت رعاية مسز مانْ (تلك العجوز التي كانت تتخذ من تربية الأطفال تجارة مربحة !) ، انتقاله بعد ذلك للعمل في حانوت مستر سوربري ، وسوء المعاملة التي لقيها هنالك مما حمله على الهرب إلى لندن تحت جنح الظلام ، ووقوعه ثمة في أيدي عصابة اللصوص التي أوشكت أن تقضي على آخر نوازع الخير في نفسه ... كل هذه مشاهد أليمة محزنة تملأ النفس بالحسرة ، وتثقل على القلب بأشجانها ، فلا يخفف من وقعها إلا بعض تلك الجوانب المشرقة التي يعرضها دكنز خلال حديثه فينفس عن القارئ بعض التنفيس ... كشخصية مسز سوربري — عنوان السلاطة — وابنتها شارلوت ، ومشهد اشتباكهما في معركة مع أوليفر المسكين قبيل هروبه بهيئة تغتصب منا الابتسام وإن كانت القلوب مفعمة بالألم ؛ ثم منظر القبض على أوليفر في لندن عند ما « نشل » زميلاه منديل المستر براونلو ، واندفاع المارة خلفه وهم يتصايحون بإيقافه وفي مقدمتهم اللصان الأصيلان ؛ وخروج جمهور مسرح

بنش[1] برمته والرواية فى أدق مواقفها للاشتراك فى مطاردة اللص المزعوم ... إلى آخر ما هنالك . فهذه كلها مواقف مرحة طريفة تستجلب الضحك وتقلل من عنف المأساة التى تمثلها حوادث القصة ؛ فيسير القارئ خلال فصولها وقد اعتدل مزاجه أو كاد ، وتوازنت دواعى القلق والارتياح فى نفسه

هذه الفكاهة

على هذا النحو البارع يجمع دكنز فى حديثه بين الجد القابض والفكاهة المرحة ، وفى وسعنا أن نتصور مبلغ الوحشة التى كانت تبدو فيهما رواياته لو أنها خلت من هذا الروح المتع الذى يتألق خلال حوادثها ، كما تتألق النجوم اللوامع فى ظلمة الليل البهيم

على أن ثمة علاقة وثيقة بين الفكاهة والألم يجتمعان لها فى أكثر الأحيان

فقد ذكرنا أن جهاد الرذيلة إنما يكون بأحد سلاحين ؛ عرض صورها المشوهة المثيرة لتأليب النفوس عليها وحشد عوامل الكراهية والبغضاء فيما حولها ؛ أو غمزها والسخرية منها ومن مرتكبيها ، وإثارة روح التحقير والازدراء بها وبهم . وقد يكون السلاح الأخير أشد نكاية وأعمق أثراً ، فضلاً عن سلامة عقباه ومسهولة متناوله . وللأستاذ الكبير (العقاد) كلام نفيس قرأته له فى الرسالة منذ سنوات فى تعليل انتشار الروح الفكاهى بمصر فى فترات الانحطاط السياسى وقيام المظالم الاجتماعية . على أنى لست أحاول هنا أن أفترض أن دكنز كان من أهل التقية فى محاربة المظالم التى نصب لها ، فقد كان له من طبيعة نفسه ، ومن حال بيئته ما يؤديه إلى أتم الصراحة ويحمله على أبلغ الجرأة ؛ ولكنى أقول إنه اجتمعت فى نفسه عوامل السخرية وبواعث الألم جميعاً ، وإنه استغل هذه الموهبة الفذة التى أوتيها : موهبة الذوق الفكاهى ، والقدرة على التهكم اللاذع القاسى ، استغلالاً أتاح له أن يخرج نوعاً من الأدب قل أن أتيح لغيره أن ينتج مثله

(١) بنش شخصية مشهورة فى التمثيل الفكاهى بانجلترا ، وقد كان بنش وجودى Punch and Judy أشبه شىء بما نسميه نحن اليوم عزيزة وجونن أو عشكاح وريعة أو غيرها من أشباههما

أهداف واضطرابات

كان دكنز يهدف بكل كتاب يخرجه إلى غاية إصلاحية يضعها نصب عينه ، ويتجه فى الوقت نفسه نحو رذيلة من الرذائل يحاول أن يهدم كيانها ويجتث أعمق أصولها . فهو يحمل معول الهدم فى يد ومواد البناء والتجديد فى أخرى ؛ أو هو يهدم ، ثم يخطط الأوضاع — على الأقل — لمن يقوم بعده بمهمة البناء

ففى مجائف بكويك يعالج — فيما يعالج — مشكلة السجون ، ويكشف عن بعض مثالب النظام فيها . وفى مغامرات أوليفر تويست يندد بقسوة المجتمع على الأطفال المتشردين ، ويحمل أنظمته الجائرة تبعة انحدارهم إلى مهاوى الرذيلة والفساد .

وفى (حياة ومغامرات نيكولاس نيكلباى) يكشف عن مساوىء التعليم الأهلى فى انجلترا ، ويوجه النظر إلى أشهر عيوبه كما أنه يعالج مشاكل الأسرة فى روايات (عيد الميلاد) ويحاول أن يضع نموذجاً عالياً لمجتمع فاضل قوامه التعاطف والتواد ، وملء أفقه السعادة والرضى وحب الإحسان ؛ مع الشعور بآلام الغير وبأفراحه ومشاركته فى بأسائه وفى ضرائه

ولقد عاش دكنز حتى شاهد بعينى رأسه جل نظرياته يتحقق ، وأكثر أمثلته العليا يصبح أمراً واقعاً ونهجاً فى الحياة مسلوكاً

وهو يُعد — إلى جانب ذلك — أولَ من رفع من شأن الروح « الفكاهى المرح » فى انجلترا وأحله فى الأدب مكاناً مرموقاً . فلقد كانت الشخصيات الفكاهية قبل دكنز أمثلة تامة للخيبة والجهالة ، ووسائل مصطنعة للاضحاك والترفيه ليس غير ... حتى جاء دكنز فنفض عن هذا الروح غبار الإهمال والتخلف . وهو فى ذلك لم يبتدعه من نسج خياله أو يخلق به شيئاً من العدم ؛ وإنما وجده بأتم أوضاعه فى أزقة لندن ، واقتبسه من صدور أبنائها - بل من صدره هو نفسه — ثم أظهر للناس قيمته فى تذليل مصاعب الحياة ومواجهة أحداثها

ويقول الإنجليز إن هذا الروح المرح ، روح أبناء لندن الصميمين ، أو ما يسمونه : Cockney Spirit ، هو سر نجاحهم ودعامة انتصارهم فى كل معترك . وإنه — إذا حللناه — لمزيج عجيب التركيب من الهدوء والسخرية والصلابة والاستسلام

والتصميم جميعاً ، وذلك شيء قديم في طبائع القوم ، ولكن جاء دكنز فأعطى منه أمثلة روائع تنبض بالحياة ، فأبرز بذلك من قيمته ، ورفع من قدره كخلق اجتماعي نافع ، وسلاح في معترك الحياة لا يُقَلل له حد أو تنبو عنه ضريبة .

مراحل أخرى

نشر دكنز جل رواياته في حلقات أسبوعية متتابعة ، فكان لا يُرى أكثر وقته إلا منهمكاً في تحرير أو غارقاً في تفكير ... ولقد أثر فيه هذا المجهود المضني فألم به المرض غير مرة خلال عام ١٨٤٨م

ثم رحل إلى أمريكا طلباً للاستشفاء والراحة فقوبل هناك بأجل مظاهر الحفاوة . ولما عاد أصدر كتابه (مذكرات أمريكية) ويبدو أنه كان فيه صريحاً إلى الحد الذي أثار عليه عاصفة قوية من الاحتجاج في سائر مدن الولايات المتحدة !

ومرت فترة قصيرة ظهر بعدها بقصته (أغنية عيد الميلاد) فكانت الحلقة الأولى من سلسلة روايات عيد الميلاد التي دأب على إصدارها في مثل هذه المناسبة من كل عام

وفي سنة ١٨٤٦م تولى رئاسة تحرير الديلي نيوز ، ولكنه تخلى عن هذا المنصب بعد قليل ليمضي في رحلة إلى سويسرا ، وهناك كتب روايته : دومبي وولده

وبدأ ينشر في عام ١٨٤٩م فصول أشهر رواياته على الإطلاق : داڤيد كوبر فيلد ، وأنشأ في الوقت نفسه مجلة أسبوعية تحت عنوان : وصايا منزلية . واستبدل بها فيما بعد صحيفة أخرى سماها ، دورة العام الكامل

وقد استنفد هذا المجهود الهائل قواه ولكن لم يزده ذلك إلا انهماكاً على العمل

وبدأ في عام ١٨٥٣م يلقي فصولاً من رواياته في مجتمعات عامة ... بدأ ذلك في برمنجهام بروايته : أغنية عيد الميلاد ، واستأنفه في سائر المدن الإنجليزية إجابة لدعوات ملحة ، ولقد درت عليه هذه المحاضرات فيما بعد أرباحاً وفيرة

وفي عام ١٨٥٩م تيسر له — كما أشرنا من قبل — أن يشتري بيت أحلامه منذ الطفولة (قصر جادز هيل) حيث أنشأ في رحابه كوخاً على النسق السويسري chalet أتم بين جدرانه تأليف كثير من رواياته الخالدة . ولقد ارتفعت أرباح دكنز من قراءاته العامة خلال فترة ما إلى نصف ألف من الجنيهات كل أسبوع ؛ ولكن أوهن هذا المجهود المتوالي من صحته وأذال من قواه حتى اقتضب حبل حياته ، لا سيما وأنه كان يوالي إلى جانبه إصدار رواياته في فصول متلاحقة

وفي عام ١٨٦٦م شد رحاله مرة أخرى إلى أمريكا ليحاضر القوم برواياته ، ثم عاد إلى انجلترا مستأنفاً مهمته الشاقة حتى صرفه عنها المرض وفرط المجهود فأمسك مرغما .

النهاية

أقبل خريف عام ١٨٦٩ م فاعتكف دكنز في جادزهيل ليكتب روايته الأخيرة (سر إدوين درود Edwin fo Drood The Mystery of) ، ولكن تقطعت به أسباب العيش قبل تمامها ...

وكان موته فجائياً ، فقد أصيب بنكسة شديدة في اليوم الثامن من يونية سنة ١٨٧٠م وتوفي في مساء اليوم التالي

وكان لنعيه وقع شديد في كل مكان ، ورنة حزن قوية زلزلت قلوب المعجبين به ... وما أكثرهم

ولم يكن عجيباً أن تصل تعزية الملكة فكتوريا في أوائل الرسائل التي تدفقت من سائر الجهات تدفق السيل العرم ، وهي التي دعته في أخريات أيامه إلى التشرف بلقائها في قصر بكنجهام وتقبلت هديته التي رفعها إليها من مؤلفاته بأحسن قبول

وكان طبيعياً أن يكون مقر دكنز الأخير بين جنبات كنيسة وستمنستر مثوى الأبطال والزعماء والنابغين في كل فن

وقد احتفل بدفنه في بساطة وهدوء وفق وصيته الأخيرة ، ولم يخط على صفائح قبره إلا هذه الكلمات القصيرة :

« تشارلز دكنز : ولد في ٧ فبراير عام ١٨١٢ ، وتوفي في ٩ يونيه ١٨٧٠ » .

(يجرجا) محمود عزت عرفة